النموذج الرابع

إدارة عسكريَّة وخالد بن الوليد سيف الله المسلول

العبرة ليست بتلك المدَّة الزَّمنية التي يقضيها المسلم تحت راية الإسلام، أو بتلك الوثائق الشرعية التي تثبت للعالم كله أنه مسلم، أو بامتداد نسبه إلىٰ فلان من أولياء الله الصالحين، بل مَنْ إذا ذكر اسمه أشرقت الشمس وسطع ضوؤها، وبزغ القمر وكأنه في ليلة الرابع عشر، لا يمكن أن ينسىٰ التاريخ ذكراه، أو أن تمر بسيرته دون أن تقف أمامها وقفة إجلال وإعزاز وتقدير.

وخالد بن الوليد ﷺ وإن جاء إسلامه متأخِّرًا في السَّنة الثامنة من الهجرة النبويَّة إلا أن سجله الحافل بالبطولات والانتصارات وضعته علىٰ رأس قائمة القوَّاد الذين أعزَّ الله بهم الإسلام وأذلَّ بهم أعدائه، ولا غرابة في ذلك فهو من قبيلة بني مخزوم صاحبة الريادة والشرف في الجاهلية، حيث أهَّلته تلك النشأة علىٰ تحدِّي ومواجهة المخاطر، ثم إدارة المعارك ووضع الخطط العسكرية في ضوء قراءة الواقع وإدراك أبعاده قبل وبعد وأثناء الحروب، أو ما يعرف عند علماء الإدارة بالإدارة العسكرية، حيث «كان خالد بن الوليد نموذجًا فريدًا في العبقرية العسكرية والبطولة الحربية، فكانت خصيصة «الجنديَّة» أظهر خصائصه حتىٰ لا يستطيع من يردِّد النظر في سيرته باحثًا عن مجال العظمة، إلا أن يرىٰ تلك الخصيصة عنوانًا لكل فصل من فصول حياته ... فالصورة التي يراها القارئ في هذا البحث لبطل الإسلام «خالد بن الوليد» هي صورة من صُنْع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد والتفكير الحازم في الخروج من مأزق الحياة»[1].

وقد أثبتت الأيام أن اختيار الرسول ﷺ له ليكون سيف الله المسلول لم يكن

(1) خالد بن الوليد. صادق إبراهيم عرجون ص13.

لقبًا يقدِّمه له علىٰ طبق من فضة احتفاء به وبإسلامه وتقديرًا لمعرفة الحق والاهتداء إليه، إنما كان بناء عن دراسة وخبرة وعلم بمواهب الرجال وتقييم نشاطهم، وإسنادهم إلىٰ المهام التي تتناسب مع قدراتهم، وتفريغ تلك الطاقة الكامنة في نفوسهم، وتحويلها من عالم ليس له من غاية إلا الحرب من أجل الحرب والعصبيَّة، أو التفاخر بالأحساب والأنساب إلىٰ معرفة غاية الوجود وحقيقة الاستخلاف في الأرض، والتي استحقوا بها وسام الشرف من الطبقة الأولىٰ.

«وقد شهد منه الإسلام ما أقرَّ عينه، وأرضىٰ دعوته، فكان في جميع مواقفه القائد المحنك، والسياسي الحكيم، والبطل الصنديد، والجندي الصادق، والشجاع المقتحم، والفارس الجرئ، والمفكر الحازم، والعقل المسود، والطود الذي لا تزعزعه الحوادث، ولا تسطر حلمه الشدائد، والمؤمن الذي لا يستفزُّه النصر، ولا يبطره العجب، ولا تملكه الخيلاء الجوفاء، ولا تخدعه الخدع، ولا يعجزه الابتلاء، وهذه المزايا منتهىٰ ما يمكن أن تجتمع لرجل في أمَّة، وغاية ما يطمح إليها قائد ماهر من قوَّاد الحرب في القديم والحديث، ولقد كانت في خالد حقائق هي بعض ما حباه الله به من خصائص أحكمتها الأحداث، وصقلتها الشدائد، وهذَّبتها التجارب، وربَّاها الإسلام، وسجَّلها له التاريخ»[1].

وقد منح الرسول ﷺ خالد بن الوليد هذا الوسام في غزوة مؤتة بعد مقتل القوَّاد الثلاثة، وذلك عندما عاد بجيش المسلمين في أمان، حيث قال ﷺ: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- حتىٰ أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتىٰ فتح الله عليهم»[2].

---

(1) السابق ص60.

(2) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه 1/ 420- رقم 1189، وكتاب الجهاد - باب تمنِّي الشهادة 3/ 1030- رقم 2645، وباب من تأمَّر في الحرب بغير إمرة 3/ 1115- رقم 2898، وكتاب فضائل الصحابة- باب مناقب خالد بن الوليد 3/ 1372- رقم 3547، وكتاب المغازي - باب غزوة مؤتة 4/ 1554- رقم 4014 من حديث أنس رضي الله عنه.

وقد جاء هذا الاختيار نتيجة لمجموعة من المعايير استنبطتها من تلك السطور والصفحات والمجلدات التي كتبت عنه ومنها:

المعيار الأول: شجاعة حقيقية لا مصطنعة.

بطل هذا العنوان ليست سعادته في رغد العيش والمركب الفاره وحياة الأمراء -مع أنه يمتلك ذلك- ولكن ميدان المعارك والحروب عالمه الذي يرىٰ فيه نفسه، ويحقِّق من خلاله أحلامه وأمانيه، فالدُّنيا تظل ساكنة لا وجود لها ولا قيمة في حالة السِّلم والهدنة ولكن ما إن ينادىٰ مناد الجهاد حتىٰ يصول ويجول ويحصد الرقاب، فإن أبصرته عيناك فلا تخاطر بنفسك من أن تكون له ندًّا أو منازلاً فلست أهلا لذلك وكفؤًا مهما كنت من الشجاعة والقوَّة بمكان.

فمن الفرسان من تلهب مشاعره الكلمات والخطب والأشعار حتىٰ يزأر ويثبت في الميدان، ومنهم من يدَّعي الفروسية ويظنُّ أنه ابن لها أرضع من ثديها وهي منه براء، ولكن خالد بن الوليد أجمل لحظات حياته أن يرىٰ نفسه وغبار النقع يتطاير من حوله ويرتفع إلىٰ عنان السماء، وسيفه يلمع كالبرق يحصد به رؤوس الأعداء.

والأحداث والشواهد خير دليل علىٰ ذلك، حيث لم تمنعه قوَّة خصمه من أن يكون له ندًّا، ولم ترهبه أحاديث الأساطير والخرافات عن الجيش الذي لا يقهر؛ وذلك لأن غايته الموت في عزّ خير له ألف مرَّة من أن يعيش تحت ركاب المغتصبين. فهذه أولاً شجاعة الكلمة، أو قل إدارة وهيبة الكلمة، والتي كتبت بمداد العزَّة والكرامة والرفعة والفخر، وسجِّلت باسمه في سجل الخالدين يرسل أولىٰ سطورها إلىٰ نفسه أولاً فيقول: «ما ليلة تهدىٰ إلىٰ بيتي فيها عروس أنا لها محبٌّ، أو أبشَّر فيها بغلام بأحب إلىٰ من ليلة شديدة الجليد في سريَّة من المهاجرين أصَبِّح بها العدو»[1].

(1) أخرجه ابن شيبة في مصَنَّفه - كتاب فضل الجهاد - باب ما ذكر في فضل الجهاد والحثِّ عليه 4/ 214 - رقم 19421، وأحمد في فضائل الصحابة - باب فضائل خالد 2/ 814 - رقم 1476، =

ثم يرسل السطور الأخرىٰ إلىٰ صُنَّاع القرار أو بمعنىٰ أصح الولاة من الفرس في بلاد العراق فيقول لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم: من خالد بن الوليد إلىٰ مرازبة فارس، السلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فالحمد لله الذي فضَّ خدمتكم، وفرَّق كلمتكم، ووهن بأسكم، وسلب ملككم، فإذا أتاكم كتابي هنا فاعتقدوا مني الذِّمة، وأجبوا إلىٰ الجزية، وابعثوا إلىٰ بالرُّهن، وإلا فو الله الذي لا إله إلا هو لألقينكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة والسَّلام»[1].

ولكن لم تكف هذه السطور لرد كيد أعداء الدِّين ودرأ إفسادهم فكانت السطور الأخرىٰ أكثر حدَّة وصرامة، وخاصَّة عندما لجأوا إلىٰ المساومة -حيلة المستضعفين-، وحوار القوَّاد يكشف هذه الحقائق.

قال قائد الروم ماهان: «إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلمُّوا إلىٰ أن أعطىٰ كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلىٰ بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أن قوم نشرب الدماء، وإنه بلغنا أن لا دم أطيب من دم الروم فجئنا لذلك، فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كنا نحدِّث به عن العرب»[2].

= وأبو يعلى في مسنده 13/ 141 - رقم 7185. ثلاثتهم من حديث خالد بلفظة موقوفًا، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد - كتاب المناقب - باب ما جاء في خالد بن الوليد 9/ 583- رقم 15885. وقال رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

(1) أخرجه القاسم بن سلام في الأموال - كتاب الفيء - باب أخذ الفدية من المجوس 1/ 42 - رقم 86، وابن شيبة في مصنفه - كتاب التاريخ - باب قدوم خالد الحيرة 6/ 547 - رقم 33728، وابن زنجويه في الأموال - كتاب الفيء - باب أخذ الجزية من المجوس 1/ 136 - رقم 131 من طريق مجالد عن الشعبي بلفظه.

(2) ذكراه ابن كثير في البداية والنهاية - أحداث سنة ثلاث عشرة من الهجرة - وقعة اليرموك 7/ 10 من قول الوليد بن مسلم.

ثم يتحدَّي خالد بن الوليد كثرة عدد الأعداء وتفوقهم في العدَّة والعتاد بقوة إيمانه وثقته بالله ﷻ، فلم يجد الخوف له مكانًا في قاموس حياته، ودليل ذلك أنه «لما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصاري العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد: ويلك أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه، وأنهم أضعفوا في العدد -وكان فرسه قد حفا واشتكىٰ في مجيئه من العراق-»[1].

أرأيتم مع الإسلام وبالإسلام كيف تكون شجاعة الفرسان، ليس بشجاعة الكلمة فقط كما شاهدت في الكلمات والعبارات السابقة بل المواقف والأحداث ترجمت ذلك في ميدان المعارك والحروب، فيذكر خالد بن الوليد عن نفسه: «لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقىٰ في يدي إلا صفيحة يمانية»[2].

ومع سقوط القادة في ميدان المعارك تسقط غالبًا جميع أمارات النصر، حيث يتسرب اليأس والوهن إلىٰ القلوب، وهذه بداية الانكسار وأول أسباب الهزيمة، ومن هنا كانت المواجهة بين القوَّاد، فمن «أوس بن حارثة بن لام ﷺ قال: لم يكن أحد أعدىٰ للعرب من هُرْمز، فلما فرغنا من مُسَيْلمة وأصحابه أقبلنا إلىٰ ناحية البصرة، فلقينا هرمز في كاظمة في جمع عظيم، فبرز له خالد ودعاه للبراز فبرز له هرمز فقتله خالد بن الوليد ﷺ؛ وكتب بذلك إلىٰ أبي بكر الصديق ﷺ فنفله سلبه، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم، وكانت الفرس إذا شَرُف الرجل جعلوا قلنسوته مائة ألف درهم»[3].

---

(1) السابق 7/ 9.

(2) أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة 4/ 1555رقم 4018 من حديث قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد بمثله.

(3) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 4/ 104 - رقم 3803، والحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة - باب مناقب خالد 3/ 338 - رقم 5298، والبيهقي في السنن الكبرىٰ - كتاب قسم الفيء - باب ما جاء في تخميس السلب 6/ 507 رقم 12790 - من حديث خريم بن أوس، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد - كتاب المغازي والسير - باب قتال أهل الرِّدة 6/ 328 - رقم 10393. وقال رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم ورجاله رجال الصحيح.

ويتوارىٰ هذا التاريخ العظيم والصفحات المشرقة أمام عين خالد بن الوليد عند الرحيل عن الحياه فلم يجد أمامه إلا رجلاً يموت علىٰ فراشه، ونفسًا تفيض إلىٰ بارئها دون ضربة تسكنها عالم الشهداء، فيصدر تلك الكلمات تعبيرًا عن ألمه وحزنه، حيث «أخرج الواقدي عن أبي الزناد قال: لما حضرت خالدًا الوفاة بكىٰ ثم قال: لقد حضرت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شبرًا إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية بسهم، وها أنا أموت علىٰ فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»[1].

فهذه الشجاعة الفريدة والنادرة التي أسست في الجاهلية، وهذِّبت ورفعت قواعدها في الإسلام هي التي بوَّأت خالد بن الوليد هذه المكانة العظيمة وجعلته موضع ثقة الرسول ﷺ ثم خلفائه من بعده.

المعيار الثاني: أدب الفرسان

قد تنحني الجباه أمام سيف، وقد تذلُّ الرقاب أمام قوَّة وبطش ولكن لا تخضع القلوب إلا لصاحب أدب وأخلاق، فطرق باب المكارم غالبًا ما يكون أشدَّ تاثيرًا من طرق باب المخاطر، وهامات الأبطال رمز يصونه ويهذِّبه الإسلام بالتواضع الجمِّ والأدب العالي والخلق الرفيع.

وخالد بن الوليد لم ينس ذلك يومًا، وما كان لمثله أن ينسىٰ، حيث تهدىٰ إليه إدارة المعركة في غزوة مؤتة في أشد وأحلك اللحظات؛ وذلك بعد أن اشتدَّ سعير الحرب، وتساقط علىٰ أرضها أرواح زكيَّة سَبِحت الأرض وسَبَّحت بدمائهم، فتقدَّم له الراية بكل حبّ وتقدير، ولكن لم تطاوعه يده أن تمتدَّ وهو يعلم بمقياسه أن غيره أحقُّ بها.

ولندع الحوار يعبِّر عن نفسه كما روته كتب السِّيرة النبويَّة حتىٰ نستنبط منه

(1) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 3/ 193 - رقم 836 من حديث أبى الزناد وإسناده ضعيف جدًا فيه محمد بن عمر الواقدي وهو متروك.

الحكم والمعايير: «لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط في كل وجه. ثم إن المسلمين تراجعوا، فأقبل رجل من الأنصار يقال له ثابت بن أقرم فأخذ اللواء وجعل يصيح بالأنصار فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجه وهم قليل وهو يقول إلىٰ أيها الناس فاجتمعوا إليه، قال: فنظر ثابت إلىٰ خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان فقال: لا آخذه أنت أحقُّ به أنت رجل لك سنّ، وقد شهدت بدرًا»[1].

فالبداية تشهد بإباء خالد بن الوليد حمل الرَّاية أدبًا وتقديرًا والنهاية تشهد بقبولها كذلك، وكل ذلك حسب حكم ومعايير، فالإباء حيث «خالد يذكر لثابت صفتين تجعل ميزانه أرجع للإمارة -في نظر خالد- من خالد نفسه، فمن دونه من الناس، ذكر أنه رجل مكتمل العقل، عالي السِّنِّ، قد حنَّكته التجارب، وصقلته السنون، وللسِّنِّ في الحروب امتياز، فإنها حاضنة الأناة والريث، والحرب لا يصلح لها أحيانًا إلا الرجل المكيث، وذكر أنه شهد بدرًا، وهذا أشرف أوسمة الإسلام، وقد علم خالد رضي الله عنه مقام شهود بدر، ومكانهم من قلب رسول الله ﷺ»[2].

وأما قبول الرَّاية فيأتي بعد ما أجمع الصحابة علىٰ اختياره، وطابت نفوسهم إلىٰ إسناد وإهداء القيادة إليه «وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس، ينزلهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته»[3].

ويتولَّىٰ عمر بن الخطاب أمر هذه الأمة بعد صعود روح أبي بكر الصديق إلىٰ بارئها فيأمر بعزل خالد بن الوليد من منصبه في قيادة الجيش في قتال الرُّوم بالشام وتولية أبي عبيدة بن الجراح فلا يثور ويغضب بل يقبل ويمتثل «فسواء عليه أن يكون أميرًا أو جنديًّا. إن الإمارة كالجنديَّة، كلاهما سبب يؤدي به واجبه نحو الله

(1) أخرجه الواقدي في المغازي 2/ 763، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ 4/ 253، وابن عساكر في تاريخ دمشق 2/ 14، 11/ 107، 108. وإسناده ضعيف جدًّا وفيه محمد بن عمر الواقدي وهو متروك.

(2) خالد بن الوليد. صادق إبراهيم عرجون ص66.

(3) فقه السيرة للغزالي ص355.

الذي آمن به، ونحو الرسول الذي بايعه، ونحو الدِّين الذي اعتنقه وسار تحت رايته وجهده المبذول وهو أمير مُطاع كجهده المبذول وهو جندي مطيع»[1].

فما كانت الإمارة له يومًا مطمعًا ولا مغنمًا ولا سبيلاً إلىٰ تحقيق المآرب، ولا هوىٰ يحقِّق به طموح نفسه، ولا سلطانًا يسيطر به علىٰ الآخرين، وإنما كانت عنوانًا لتحقيق نصر الإسلام ورفع رايته، وآية صدق ذلك أنه أشار علىٰ أصحابه في حرب الرُّوم في الشام أن يتولَّىٰ كل فرد من أفراد الجيش الإمارة يومًا حتىٰ يتولاها جميع الجيش، فقال بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه: «إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ... إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله، هلمُّوا فإن هؤلاء تهيؤوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلىٰ خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلمُّوا فلنتعاور الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا حتىٰ يتأمَّر كلكم ودعوني إليكم اليوم فأمَّروه ...»[2].

فأدب الفرسان قبل امتطاء الخيول ورفع السيوف والأعلام، هكذا علَّمهم وربَّاهم الإسلام ونبيُّ الإسلام.

المعيار الثالث: العقل الرشيد

قد يمتلك القائد قلبًا جسورًا لا يخشىٰ الموت، وإرادة قويَّة تأنُّ من حملها الجبال، ونفسًا عالية الهمَّة تأبىٰ إلا تحقيق الغايات، وصبرًا وجلدًا حتىٰ يتحقَّق النصر مهما اختلت أو اضطربت الموازين، وفوق ذلك كله تبدوعلىٰ ملامحه سمات الفرسان، ولكن ما قيمة ذلك كله إن لم يكن لديه عقلاً رشيدًا يمكِّنه من إدارة حياته وتنظيم شئون نفسه بما يتفق مع مبادئ الإسلام، وبالتالي ينعكس أثر ذلك

(1) رجال حول الرسول ص326.

(2) لم أقف عليه مسندًا، وذكره الطبراني في تاريخه 3/ 395، وأبو الربيع الحميري في الاكتفاء 2/ 396، وابن الأثير في الكامل 2/ 256، وابن كثير في البداية والنهاية 7/ 7.

علىٰ إدارته للمعارك وتنظيم صفوف جيشه، ثم وضع الخطَّة التي تتناسب مع جو كل معركة وتحقيق ما يصبو إليه؟.

فتلك مقدِّمات يصل بها ومن خلالها القائد إلىٰ نتائج وغايات؛ وذلك إذا أراد أن يكون له فضل السبق وكلمة الفصل خاصَّة عند إدارة العمليَّات الحربيَّة ووضع الخطط العسكريَّة.

والعقل الرشيد واقع يطرح نفسه أمام المواقف والأحداث، وعنوان يشهد لصاحبه بالتفوُّق والنجاح، ولذلك كان تأخر إسلام خالد بن الوليد علامة استفهام، برزت أول سطورها أمام أخيه الوليد بن الوليد عندما افتقده في عمرة القضية، والتي دخل فيها مع النبي ﷺ فأرسل إليه كتابًا قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد: فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك، وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به فقال: «مثله جهل الإسلام؟! ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين كان خيرًا له، ولقدَّمناه علىٰ غيره فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة»[1].

وقد أدرك رسول الله ﷺ هذا النجابة الرشيدة علىٰ وجه خالد بن الوليد، وقرأ علاماتها وترجمها إلىٰ عبارات أهداها له عندما ذهب إليه لإعلان إسلامه فقال له: «الحمد لله الذي هداك قد كنت أرىٰ لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلىٰ خير»[2].

وهذه نصوص تحتاج إلىٰ واقع، وسطور تحتاج إلىٰ مواقف، وغزوة مؤتة وقرار خالد بن الوليد بالانسحاب يشهد لذلك، فـ «هناك تقدَّم سيف الله يرمق أرض

(1) أخرجه الواقدي في المغازي 2/ 749، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ 4/ 190، 7/ 277، والبيهقي في دلائل النبوة. جماع أبواب السرايا التي تذكر بعد فتح خيبر - باب ذكر إسلام خالد 4/ 349 من حديث خالد بن الوليد وإسناده ضعيف جدًّا.

(2) التخريج السابق نفسه.

القتال الواسعة بعيني كعيني الصقر، ويدير الخطط في بدايته بسرعة الضوء، ويقسِّم جيشه -والقتال دائر- إلىٰ مجموعات، ثم يكل إلىٰ كل مجموعة بمهامها، وراح يستعمل فنَّه المعجز ودهائه البليغ حتىٰ فتح في صفوف جيش الروم ثغرة فسيحة واسعة، خرج منها جيش المسلمين كله سليمًا معافىٰ. بعد أن نجا بسبب من عبقرية بطل الإسلام من كارثة ماحقة ما كان لها من زوال!! وفي هذه المعركة أنعم الرسول علىٰ خالد بهذا اللقب العظيم»[1].

فهذا الموقف وإن احتاج إلي شجاعة نادرة إلا أن تغليب جانب الفكر فيه أفضل؛ لأنها حياة وتاريخ أمَّة، ولذلك قيل: «إن قائدًا في مثل موقف «خالد» أحوج إلي الفكر النافذ منه إلي السَّيف الصارم، وقد حبا الله تعالي «خالدًا» من ثاقب الفكر ومحكم التدبير وبارع السِّياسة بما أغني عن الإمداد والسِّلاح، وأن القائد الجديد أن لا طاقة جيشه في قلَّة عدده، وكثرة جراحه، بجيوش أعدائه المتكاثرة المستعدَّة في حرب فاصلة، وموقف حاسم، فماذا يصنع؟ أيطلق لهذا الجيش عنان الفرار والهرب وحسبه من الغنيمة أن يكون قد نجَّي كتيبة المسلمين من فناء محقق؟ أم يدفع به إلي هجوم لا يبالي نتائجه كائنة ما تكون، ما دام القائد قد استجاب لداعي البطولة والشجاعة؟ أم يلجأ إلي الفكر يستوحيه خطَّة لا تحمل علي أكتاف المسلمين عار الفرار، ولا تدفع بهم إلي الهلاك والدَّمار، وترمي في قلوب أعدائهم الفرق والفزع، وتقذف في أفئدتهم الرهبة والرعب، وتحيل الهزيمة نصرًا وفتحًا مبينًا؟! ... فالنبي ﷺ قد أخبر أن الله تعالي قد فتح علي المسلمين لما أخذ رايتهم خالد ين الوليد، وسمي خالدًا سيف الله، ولا تسمَّي الهزيمة والفرار فتحًا، وإنما عرف الفتح في عرف الحروب الإسلامية بالظفر بالعدو والنصر عليه، وليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول، وليس لراو بعد البخاري كلام»[2].

(1) رجال حول الرسول ص310.

(2) خالد بن الوليد. صادق إبراهيم عرجون ص67، 73.

«فتلك هي السُّنَّة النبوية تسبق النُّظم العصريَّة إلي تقدير القائد البارع بقيمة النَّجاح في ارتداده كما تقدِّره بقيمة النَّجاح في تقدُّمه وانتصاره. ولو أن خالدًا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فكرة القيادة البصيرة لساءت العقبي أيما سوء وتعرضت الدَّعوة الإسلاميَّة لمحن لا نعرف مداها الآن»[1].

المعيار الرابع: ثقافة خاصة في لغة الحوار

المسألة ليست في غزارة الثقافة وكمِّ المعلومات بقدر ما هي في طريقة العرض ومدي استجابة الآخر لها، فخالد بن الوليد لم ينهل من الثقافة النبويَّة سوي أربع سنوات تقريبًا، ومع ذلك انحني أمام لغة حواره الخاصَّة عمالقة هذا الفن وأساتذة هذا العلم.

ومن الدلائل علي صدق ذلك هذا الحوار الذي جمع بينه وبين جرجة القائد الروماني عندما قال له: «يا خالد اصدقني ولا تكذبني فإن الحرَّ لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع بالله هل أنزل الله علي نبيِّكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله علي أحد إلا هزمته، قال لا، قال فبم سميت سيف الله قال: إن الله بعث فينا نبيَّه ﷺ فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه وبعضنا باعده وكذَّبه فكنت فيمن كذب وباعده وقاتله، ثم أخذ الله تعالىٰ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وتابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله علىٰ المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشدِّ الله علىٰ المشركين، قال صدقتني»[2].

وقد أخطأ من ظنَّ أن الدَّعوة إلىٰ الله ﷻ وعرض طريق الهداية إلىٰ صراط الله المستقيم خاصَّة بالمساجد وأماكن العبادة، أو أن طريق الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة وجذب النفوس إلىٰ تعاليم هذا الدين الحنيف يحتاج الىٰ زمان

(1) موسوعة العقاد الإسلامية (عبقرية خالد) 2/ 876.

(2) ذكره الكلاعي في الاكتفاء 3/ 285، وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية 7/ 12.

أومكان بعينه، بل تحاول أن تخترق جميع هذه الحدود وغيرها بجميع الوسائل والإمكانات المتاحة حتىٰ ولو كان هدا الأمر بين صهيل الخيول وصليل السيوف. فبعيدًا عن روح التعصب والتزمت والتحزُّب، وإيمانًا واعتقادًا بكل ما تنطق به الألسنة وتشعر به الأفئدة يقدَّم الإسلام بصورته الصحيحة التي تثبت للعالم كله بكل طوائفه ولغاته ودياناته وأجناسه أن هذا هو الإسلام ولا إسلام سواه.

فتأمَّل هذه الكلمات والعبارات التي صنعت هذا الحوار وجعلته مثالاً يحتذىٰ به علىٰ مرِّ العصور والأزمان، وذلك بين خالد بن الوليد وجرحه القائد الروماني، والتي كانت سببًا في إيمانه وهدايته.

«يا خالد أخبرني إلام تدعون، قال إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله، قال فمن لم يجبكم قال الجزية ونمنعهم، قال فإن لم يعطها، قال نؤذنه بحرب ثم نقاتله، قال فما منزلة الذي يدخل دينكم ويجبكم إلىٰ هذا الأمر اليوم، قال منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأوَّلنا وآخرنا، ثم أعاد عليه جرجة هل لمَنْ دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر، قال نعم وأفضل، قال وكيف يساويكم وقد سبقتموه، قال إنا دخلنا في هذا الأمر وتابعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالغيب ويرينا الآيات وحقٌّ لمن رأىٰ ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويتابع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم حقيقة ونيَّة كان أفضل منَّا، قال جرجة: صدقتني بالله ولم تخادعني ولم تألني. قال بالله: لقد صدقتك ومالي إليك ولا إلىٰ أحد منكم حاجة وإن الله لولي ما سألت عنه، قال صدقتني وقلب الترس ومال إلىٰ خالد وقال علِّمني الإسلام، فمال به خالد إلىٰ فسطاطه فشنَّ عليه قربة ثم صلَّىٰ به ركعتين ... ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة يسجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما»[1].

(1) الاكتفاء 3/ 285، 286، والبداية والنهاية 7/ 12.

أرأيتم طريقة عرض الحوار وطرح الأدلة واستنباط الأفكار، والجواب الذي يحيط بكافَّة أطراف السؤال فلم يدع له بعد ذلك مقال، والكلمات التي تثبِّت الجبال وتنزع الشوك من بين أعضاء الجنان، والأمل والرجاء اللذان يبعثان في القلب السعادة ويقضيان علىٰ كل محال، لذلك تسمع فتقتنع، وتقتنع فتُسَلِّم، وتُسَلِّم فتُسْلِم لله رب العالمين!.

وقد مرَّ زمن خالد بن الوليد منذ قرون عديدة ولكن لم تزل ذكراه حديث المجالس والندوات -المرئيات والمسموعات-، وعلىٰ رأس سطور المُصَنَّفات رمزًا للبطولة والفداء وعنوانًا للفروسية بحقّ، ونموذجًا حيًّا عمليًّا للمسلم الذي صاغه وربَّاه الإسلام علىٰ عينه، وقد تظنُّه أسطورة أو نسج خيال ولكنه لم يكن كذلك بل كان واقعًا اختاره الرسول ﷺ ليكون سيف الله المسلول بناء علىٰ هذه الحكم والأسرار والمعايير وغيرها كثير، والتي لم تكن سوىٰ مدخل أو تمهيد لتكوين هذه الشخصية وبزوغ نجمها في المشرق والمغرب، يعرفه القاصي والداني والحاضر والغائب، بل وتشتاق إلىٰ سيرته الأجنَّة في بطون أمهاتها، وعالم الغيب الذي لم يزل في ضمائر الكون حتىٰ من لم يعرف من الإسلام إلا اسمه تذكِّره بطولاته دائمًا بأنَّه فارس من طراز خاص تعجز عن وصفه الكلمات والعبارات، ويُسَجِّل القلم سيرته بحروف ليست من ذهب أو نور -كما يقولون- وإنما من مسك وعنبر تفوح رائحتهما إلىٰ يوم الدين.